University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الثاني – مارس 2015

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

د. حمزة السر محمد الحسن.

(أستاذ التاريخ المشارك – كلية الآداب – جامعة بحري – الخرطوم – السودان)

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الثاني – مارس 2015

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

مستخلص

احتلت الدولة الأموية بالأندلس مركزاً مرموقاً بين الدول آن ذاك. فقد عاصرت الدولة العباسية والدولة الفاطمية ودولة الفرنجة في غالية والممالك المسيحية في شمال إسبانيا والدولة البيزنطية. وقد تشابكت مصالح هذه الدول واتفقت وتضاربت في نفس الوقت بتعدد المصالح واختلاف العقائد والمذاهب، مما أدى إلى ظهور نشاط دبلوماسي حافل في العصور الوسطي، تمثل في تبادل السفارات توثيقاً لعرى الصداقة ونبذاً للخلاف والتوتر، فعقدتاتفاقيات السلام والتهاني وتعددت السفارات الخاصة بإنهاء الحروب أو فض المنازعات. وقد تم اختيارالسفراء بعناية من حيث المظهر والفصاحة والذكاء الشديد وحفظ الأسرار. وقد اهتمت الدولة الأمويةباستقبالالوفود والسفراء اهتماماً كبيراً لإظهاراحترام السفير باعتباره يمثل رئيس الدولة ولإظهار قوة الدولة وعظمتها لتحظى بالتقدير والاحترام، فكان الولاة المسلمون يهتمون بالسفراء عند دخولهم الأراضيالإسلامية، ويقدمون لهم الخدمة حتى يقتربون من العاصمة، عندها يأمر الأمير أو الخليفة بإعداد موكب عظيم لاستقبالهم، وتعد لهم استراحة خاصة للتخلص من أعباء السفر قبل مقابلة الخليفة. أما حفل التوديع فلا يقل أهمية عن مراسمالاستقبال، بل كان يمتاز عنه بتقديم الهدايا القيمة، لما في ذلك من دليل على قوة الدولة وثرائها.

Abstract

The Umayyad state in Spain occupied a distinguished position among the contemporary states of the Abbasids, Fatimids, Byzantines, Franks and the Christian Kingdoms of North Spain. It was the most civilized state during the medieval ages. It was renewed for its military power, literature, science, and arts. It maintained also supremacy over its Muslims and Christianneighbors. This period was marked by increasing diplomatic relations. This paper which used the historical and descriptive methods discusses in details that relations as well as the diplomatic missions Cordoba exchanged mainly with the Byzantines, the Holy Roman Empire and the Christian Kingdoms of North Spain. It aims to highlight in details these relations.

- مقدمة

شهدت قرطبة في أيام بني أمية ازدهاراً لم تشهده من قبل، فأصبحت مركزاً حضارياً هاماً يقصده الطلاب، ومركزاً سياسياً مرموقاً، فأخذ ملوك أوروبا يترددون إلى أمراء وخلفاء بني أمية بالسفارات. ومن الملاحظ أن مهمة تأسيس الدولة الأموية وما ترتب عليها من حروب داخلية لم تتح لعبد الرحمن الداخل من الفرص إلا قليلها للاهتمام بشؤون ما يتخطى هذه الدائرة، وقد انعكس ذلك بشكل خاص على السياسة الخارجية التي لقيت الإهمال، بل كان يرحب بعقد السلم والمهادنة مع نصارى العرب والشمال، حيث كانت سياسته نحوهم سياسة اعتدال ومهادنة، واستمر الحال هكذا إلى أن أطل عهد عبد الرحمن الأوسط الذي تبادل السفارات مع إمبراطور بيزنطة وملك النورمانديين، ووقع معاهدة هدنة وسلام ملك الفرنجة. وقد جمع عبد الرحمن الناصر في شخصيته عدة مواهب ومزايا جعلته حاكماً من الطراز الأول، لذلك ترك بصماته واضحة ليس على مستوى دولته فحسب، بل تعدى ذلك إلى العالم من حوله. فعلى المستوى الداخلي استطاع أن يجعل من قرطبة جوهرة العصر، وعلى مستوى جيرانه أصبح الحاكم الأكثر منعة في غربي البحر المتوسط. كل ذلك أهله بأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة له، فسعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه، حيث وفدت عليه رسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، وتبادل الرسائل والسفارات معإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت زيارة الملك سانشو ملك ليون إلى قرطبة. وقد استمر تبادل السفراء والهدايا مع الأوربيين طوال عهد المستنصر وفترة الاستبداد العامري.

وتأتي أهمية الموضوعمن أن التعرض لموضوع العلاقات الدبلوماسية فيحقبة العصور الوسطى أمر غير يسير، لأن تلك العلاقات لم تحتل غير جانب سطحي في إطار العلاقات الدبلوماسية في تلك الفترة، وأن العلاقات العسكرية هي الطاغية على ما سواها، فالجانب الأهم كانت تشهده ساحات القتال في معركة إثبات الوجود فوق أرض محاطة بالأعداء، فالورقة إذن تستمد أهميها من تسليطها للمزيد من الأضواء على علاقات الدولة الأموية بالأندلس الدبلوماسية.

وتهدف الورقة إلى تحقيق الأهداف التالية:

1- بيان مكانة الدولة الأموية بالأندلس المرموقة من خلال علاقاتها الدبلوماسية.
2- أظهار أبهة وعظمة قرطبة من خلال حفلات استقبال السفراء.
3- توضيح ما للمعاهدات والسفارات من نتائج إيجابية على الدولة الأموية بالأندلس.

هذا وقد استخدمت الورقة المنهجين التاريخي والوصفي، إذ يناسب ذلك طبيعة هذه الدراسة.

- سياسية عبد الرحمن الداخل نحو نصارى العرب والشمال:

لم تدع الحروب الداخلية للأمير عبد الرحمن الداخل من الفرص إلا قليلها للاهتمام بشؤون ما يتخطى هذه الدائرة، وقد انعكس ذلك بشكل خاص على سياسته الخارجية التي لقيت الإهمال، فلم يفكر في غزو أرض الشمال لانشغاله المستمر بأمر تلك الحروب، بل كان يرحب بعقد السلم والمهادنة مع نصارى العرب والشمال، حيث كانت سياسته نحوهم سياسة اعتدال ومهادنة. وقد

أصدر عبد الرحمن لجيرانه نصارى قشتالة عقد أمان يؤيد ما قيل عن سياسة المهادنة والأمان والسلم معهم، وجاء في هذا العقد:

"بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان.كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ مما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة ألاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح، في كل عام إلى خمس سنين، كتب بمدينة قرطبة ثلاث من صفر عام أثنين وأربعين ومائة (الهاشمي: (2007) ص193).

وكان من نتائج انشغال عبد الرحمن الأول المستمر بالقضاء على الثورات الداخلية أن أتاح لأعدائه من بقايا الدولة القوطية، الذين اعتصموا في المناطق الصخرية في الشمال الغربي من إسبانيا أن يصنعوا من هناك نواة الفكرة الوطنية لاستعادة الأرض وتحريرها من العرب المسلمين، فإذا بهم قوة تأخذ طريقها إلى النمو في زحمة التطاحن السياسي بين العرب، وتزداد توسعاً على حساب حكومة قرطبة المنهكة، لكن النشاط المسيحي لم يكن قد بلغ بعد إلى الدرجة التي تؤهله بأن يكون خطراً على حكم العرب المسلمين في عهد عبد الرحمن الأول.

- **العلاقة مع شارلمان:**

اقترن اسم شارلمان في تاريخ إسبانيا الأموية وفي التاريخ الصليبي العام بالحملة الشهيرة التي اخترق بها البرينيه إلى سرقسطة، وهذه الحملة تكسب أهميتها عند الجانب الأوروبي من كونها أول مبادرة هجومية قام بها الكارلونجيون ضد المسلمين بعد سلسلة الحملات العسكرية التي قام بها هؤلاء إلى عمق فرنسا واقترابهم من عاصمتها الحالية. وتكسب الحملة أهميتها من منظور دولي حيث يرى فيها بعض المؤرخين تآمراً بين دولتين حليفتين: الكارولنجية والعباسية، إذ لهما عداء مشترك ضد الدولة الأموية في إسبانيا والدولة البيزنطية.

وكانت المؤامرات المستهدفة نظام عبد الرحمن الداخل قد امتدت إلى الشمال عندما قام تحالف سياسي بين حاكم سرقسطة سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري وعبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي. وقضت الخطة المتفق عليها أن يعبر شارلمان بجيشه حبال البرينيه ويتجه لمدينة سرقسطة فيسلمها له الأعرابي، وفي نفس الوقت يأتي الصقلي من المغرب في أسطول بحري وجيش من البربر ويهاجم الساحل الشرقي الأندلسي، وينزل بجيشه في مدينة تدمير(مرسية) وبهذا يطوقون عبد الرحمن الداخل ويقضون عليه، ثم يعلنون أن البلاد للخليفة العباسي وأن شارلمان صديقه وحليفه. وقد قام الأعرابي بمقابلة شارلمان في مدينة بادربون سنة 160هـ/777م (دوزي: ص 228).

وقد رحب شارلمان بالعرض، وكانت ظروفه العسكرية حينذاك مؤاتية، فأخذ في إعداد حملة أراد أن تكون من أضخم الحملات ليتاح له تحقيق ما يجول برأسه من تشامخ إلى العظمة.

هذه المؤامرة محكمة التدبير إلا أنها صعبة التنفيذ من الناحية الإستراتيجية، لأن نقل الجيوش في هذه البلاد الوعرة، وفي هذه الأوقات المحددة أمر ليس من السهل تنفيذه (بيضون: ص199).

وعلى كل حال نزل الصقلي بجيشه وأسطوله على ساحل تدمير قبل أن يصل شارلمان في الميعاد المتفق عليه. وانتهز عبد الرحمن الداخل هذه الفرصة فسارع في مهاجمته قبل أن ينضم إليه بقية حلفائه، فتمكن من هزيمته وقتله وحرق أسطوله.

في عام 778م بدأ شارلمان حملته الضخمة إلى شمل إسبانيا في طريقه إلى سرقسطة، وفي ظنه أن المدينة الثائرة على الخليفة ستفتح أبوابها أمام حليفها القادم من وراء الجبال، لكن المتآمرين داخل المدينة ما لبثوا أن شعروا بفداحة الخطأ الذي وقعوا فيه، فقد رفض الأنصاري حاكم المدينة بالنيابة أن يمضي قدماً في الخط التآمري، فأغلق أبواها في وجه شارلمان، وصمم على المقاومة، بل وأن ولدي الأعرابي رفضا دور أبيهم، وانقلبا عليه (عنان: ج 1، ص176) وأضطر شارلمان المصدوم بهذه التطورات المفاجئة عند أسوار سرقسطة إلى الانسحاب نهائياً، ليس عن المدينة فحسب، ولكن عن أسبانيا أيضاً.فقد صدمته مفاجأة أخرى إذ تمردت عليه في هذا الأثناء القبائل السكسونية في منطقة الراين واقتربت من كولون (أخبار مجموعة، ص13) وقد صحب معه الأعرابي كأسير حرب لأنه كان السبب في فشل حملته. وتتوالى الصدمات على شارلمانوالنكبات، فينما كانيعبر ممر رنسفالة في جبال البرينيه عائداً إلى بلاده إذ بالبشكنس يهاجمون مؤخرة جيشه ويقضون عليها، وقتلوا قائدها رولان.

وبعد فشل هذه الحملة أتجه عبد الرحمن إلى سرقسطة واستولي عليها سنة 164هـ كما عمل على تحسين علاقاته بشارلمان، وقد أجابه شارلمان إلى طلبه بعد أن نزع من خياله أحلامه التوسعية وفكرة الاستيلاء على أسبانيا. ونسمع في هذا المجال عن اتصالات بيت شارلمانوالأمير ربما اقتربت من المصاهرة (المقري: ج1، ص155). وكانت أولى ثمرات هذه العلاقة الجديدة الإفراج عن القائد الأسير ثعلبة الذي ارتهنه الأعرابي في بلاط الفرنجة.

- **بين الحكم الأول (الربضي) وشارلمان:**

رغم عزوف شارلمان عن تكرار محاولته اليتيمة في إسبانيا لم يتردد الكارولنجيون بين الحين والأخر في اختراق الجبال وإثارة المتاعب في وجه الإمارة الأموية، ففي سنة 185هـ/801م أصيبت السيادة الأموية بضربة خطيرة مع سقوط برشلونة في أيدي الكارولنجيين. وقدبذل الحكم الأول، الذي تأثر إلى حد كبير لضياع المدينة، جهداً في استردادها حين أرسل حملة ضخمة عام 195هـ/811م لذلك، في وقت كان الهدوء يخيم فيه على إمارة قرطبة، فشن هجوماً قوياً على بارشلونة، وقضى على أحد الجيوش الفرنجية بالقرب من المدينة، لكن هذه الأخيرة لم تعد إلى الأمويين، وإن أسفرت الحملة عن معاهدة بين الحكم وشارلمان نصت على احترام الهدنة في منطقة الحدود بين الطرفين، حيث ظل مفعولها سارياً حتى بعد وفاة الإمبراطور الكارولنجي (عنان: ج1، ص241).

- **السفارات على عهد عبد الرحمن الأوسط:**

أ – سفارة الإمبراطور ثيوفلس إلى قرطبة:

واجهت الإمبراطورية البيزنطية غارات متكررة على سواحلها وممتلكاتها منذ مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فالأغالبة قد انتزعوا منها جزيرة صقلية، ثم أخذوا يغيرون على سواحل البحر الأدرياني وجنوب ايطاليا، حتى بلغوا أسوار روما نفسها، والأندلسيون الربضيون قد انتزعوا منها جزيرة كريت، ومنها شنوا الغارات على جزر بحر ايجة وساحل تراقيا وغيرها من مناطق، والعباسيون كانوا يخرجون باستمرار من ثغور الشام والجزيرة ليغيرون على ممتلكاتها في آسيا الصغرى.

وفي عام 222هـ/842م دخل الإمبراطور ثيوفلس Theophilus في نزاع مع الخليفة العباسي المعتصم مستغلاً انشغاله بقتال بابك الخرمي، فأغار على الحدود العباسية، وهاجم مدينة زبطرة مسقط رأس أم المعتصم التركية، فأقسم المعتصم بأن يخرب مدينة عمورية مسقط رأس والد ثيوفلس، فجمع جيشاً ضخماً قاده هو بنفسه، ثم اتجه نحو عمورية فحاصرها حتى سقطت بيده.

ورأى الامبراطورثيوفلس بعد هذه الهزيمة ضرورة البحث عن حلفاء يؤازرونه في صراعه مع القوى الإسلامية المختلفة بعد الضربات التي تلقتها الإمبراطورية البيزنطية على يد العباسيين والأغالبة والأندلسيين الربضيين. وكانثيوفلس قد لجأ أولاً إلى الإمبراطورية الكارولنجية لكن مسعاه قد خاب، فحاول استقطاب عبد الرحمن الأوسط وإقناعه بالتعاون معه ضد العباسيين، فكانت سفارته الشهيرة إلى قرطبة.

وكانت سفارة الإمبراطور ثيوفلس هي أول سفارة قدمت إلى قرطبة، وكان ذلك في سنة 225هـ في عصر الأميرعبد الرحمن الأوسط. وكان على رأس تلك السفارة رجل يونانى يجيد اللغة العربية اسمه قرطيوس، حيث حمل معه إلى الأمير هدية ورسالة، يطلب في رسالته أن يواصله، ويرغبه في استرجاع الشام انتقاماً من المأمون والمعتصم، وقد عبر عنهما بابني مراجل وماردة، لأنهما هاجما بلاده. (المقري: ج1، ص324). ويطلب منه أيضاً مساعدته ضد الأغالبة في صقلية وضد الربضيين في كريت. واستقبل عبد الرحمن السفارة استقبالاً فخماً.

ب - سفارة عبد الرحمن الأوسط للقسطنطينية:

رد عبد الرحمن الأوسط على سفارة ثيوفلس بسفارة مماثلة معها هدية ورسالة لإمبراطور. وكانت السفارة برئاسة الشاعر يحيى الغزال، ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة، يصحبهما السفير البيزنطي، وكان الغزال رجلاً طويلاً عريضاً، وسيم الوجه، موفور النشاط، ولهذا سمي بالغزال، وربما كانت هذه الصفات هي التي أهلته لرئاسة هذه السفارة. وسارت السفارة إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) فوصلوا إلى القسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، لاقوا فيها الكثير من الأهوال.

واستقبل الإمبراطورالسفارة وتسلم الهدية والرسالة، وهي رسالة طويلة في عمومها، وعباراتها جميلة براقة. وقد ناقش عبد الرحمن الأوسط فيها محتويات رسالة الإمبراطور فقرة فقرة

(سالم: 1988، ص316) فهو قد شاطر الإمبراطور غضبه علي العباسيين، وشاطره وصف المأمون والمعتصم بابني مراجل وماردة، ودعا الله أن يقطع دابرهم ويستأصل شأفتهم، وتبرأ من الربضيين في تكريت لأنهم خرجوا عن طاعته، وترك للإمبراطور البيزنطي حرية قتالهم وطردهم من الجزيرة، لكن الأمير اعتذر عن محاربة الأغالبة لأنهم في نظره يجاهدون في سبيل الله. (المقري: ج1، ص162).

وقد أنهى الغزال سفارته على أحسن حال، بعد أن سحر البلاط البيزنطي بكياسته وظرفه وبديع صفاته، لدرجة أن الإمبراطور قدمه لزوجته وابنه الأمير ميخائيل الذي تولى العرش فيما بعد (الهاشمي: ص307). وقد دون الغزال مشاهداته في العاصمة البيزنطية، كما دون أحاديثه مع الإمبراطورة التي سحرته بجمالها، وأحاديثه مع وولي العهد، الذي سحره هو الآخر بظرفه وبارع خلاله حتى قال فيه:

وأغيد لين الأطراف رخص *** كحيل الطرف ذو عنق طويل

ترى ماء الشباب بوجنتيه *** يلوح كرونق السيف الصقيل

من أبناء الغطارف قيصرىّ *** العمومة حين ينسب والخؤول

وقد عاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر، ساهمت في صالح التقارب بين الدولتين.

ج- سفارة عبد الرحمن الأوسط إلى ملك النورمانديين:

على إثر غزو النورمانديين لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم اشبيلية وردهم عنها ثم هزيمتهم ومطاردتهم عام 229هـ/843م، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن يطلب المهادنة والصلح، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه، فبعث مع الرسل الغزال على رأس سفارة ومعه يحيى بن حبيب ليرد سفارة الملك ويعلنه بقبول الصلح. وقد لقيت هذه السفارة أيضاً من أهوال البحر الكثير. وعند وصولهم لقي الغزال من ملك النورمان كل ترحاب وعطف، وأفرد لإقامته منزلاً حسناً، وقدم إليه الغزال كتاب الأمير وهديته، فوقعت لديه أحسن موقع. وقد استقبلته ملكة النورمان، فراعه جمالها، فنظم فيها شعراً رقيقاً، إذ يقول:

يا نود يا رود الشباب التي *** تطلع من أزرارهاالكوكبا

ومصدر هذه الرواية هو ابن دحية الكلبي، وهو من كتاب القرن السادس الهجري، أوردها في كتابه "المطرب في أشعار المغرب" (ابن دحية: ص138). ويشك بعض المؤرخين في صحة هذه السفارة، إذ تظهر فيها الصنعة والاختراع، إذ نجد نفس الأشخاص ونفس الوصف الذي يتكلم عن هياج البحر ومشقة الرحلة، ونفس الأحاديث التي دارت بين الغزال وبين الإمبراطورة وولى العهد، بمعنى أن سفارة الغزا للبلاد النورمانديين هي صورة مشوهة لسفارته للقسطنطينية. ولعل الحركة الدبلوماسية الغريبة التي قام بها الإمبراطور ثيوفلس إلى قرطبة لأول مرة، والهجوم الجريء المفاجئ للنورمانديين في نفس هذا الوقت تقريباً ولأول مرة كذالك، قد ولدا في أذهان الأندلسيين أفكاراً قصصية مختلطة متضاربة، م تلبث أن تحولت إلى حقائق تاريخية (العبادي: ص144).

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

د - الهدنة مع ملك الفرنج:

على أن السياسة التقربية التي سلكها الأمويون في الأندلس نحو بيزنطة كانت تصاحبها سياسة عدائية نحو جيرانهم الكارولنجيين في فرنسا، إذ لم ينس الأندلسيون صراعهم مع هؤلاء الفرنجة أيام شارل مارتل وابنه بيبن وحفيده شارلمان، الذي حاول غزو الأندلس في حملته الفاشلة على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، ثم جاء ولده التقي على عهد عبد الرحمن الأوسط فسار على سياسة آبائه العدائية نحو الأندلس، وبسط حمايته علي الجزر القريبة منها مثل جزر البليار وسردانية و قورسيقة.

وفي سنة 233هـ/847م ظهر بالثغر الفرنجي في شمال شرق إسبانيا زعيم يدعى جين دي تولوز، وهو فيما يرجح من تسمية الرواية العربية غليالم بن برباط بن غليالم. وكان غليالم هذا قد أعلن العصيان والثورة على شارل الأصلع ملك الفرنج، ووفد في العام السابق على بلاط قرطبة، يلتمس التأييد والعون، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب، وأمده بعونه، فعاد إلى الثغر، وعاث فيه بقواته، وحاصر برشلونة، وخرب حصونها، وهاجم جرندة. وكتب عبد الرحمن إلى عامله على طرشوشة وإلى عامله على سرقسطة في إمداده وتأييده في ثورته ضد ملك الفرنج. وقد وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع بعقد الهدنة والسلم بينها (عنان: ج1، ص265).

ورأى الأمير عبد الرحمن الأوسط أن البحر هو الميدان المناسب الذي يستطيع أن يعلو فيه على خصومه الكارولونجيين، إذ كان يعلم أن قوتهم الحقيقية تعتمد أساساً على قواتهم البرية، وأن قواتهم البحرية المحدودة قد ازدادت ضعفاً في عهد لويس التقي. ولهذا قام عبد الرحمن بحشد أساطيله على طول الساحل الشرقي الأندلسي ولاسيما في طرطوشة وبلنسيه، ثم اخذ يشن غارات مستمرة من عام 339م إلى عام 350م على الشواطئ الكارولنجية في جنوب فرنسا حتى قضى على المقاومة فيها.

- عهد عبد الرحمن الأوسط مع أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة:

ولم تقتصر غارات الأسطول الأندلسي على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية، بل شملت أيضاً جزر البليار التي كانت خاضعة لحمايتهم. ويبدو أن حكام هذه الجرز قد شعروا بعدم جدوى الارتباطات بعجلة الدولة الكارولنجية، فسارعوا إلى قبول سيادة الأمويين، وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين، وفي ذالك يقول المؤرخ القرطبي ابن حيان: "وفي سنة أربعة وثلاثين ومائتين أغزي الأمير عبد الرحمن أسطولاً من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزرتي ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد وإضرارهم بمن مر إليهم من مراكب المسلمين، ففتح الله عليه، واظفر بهم، فأصابوا سبياهم، وفتحوا أكثر جزائرهم. وأنفذ الأمير فتاه شظير الخصيّ إلى ابن ميمون عامل بلنسيه ليحضر تحصيل الغنائم، ويقبض الخمس، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم، ورباعهم وأموالهم، وقبض منهم ما عليه صولحوا".

وفي السنة التالية 235هـ ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم فكتب إليهم: (أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم، وغارة

المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهدكم، وأصابتهم ما أصابوه منكم من ذرا ريكم وأموالكم، وما أشفيهم عليه من الهلاك، وسألتم التدارك لأمركم، وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم علي الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروههم، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم، ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وتمنعكم عن العود إلى مثل ذلك الذي كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته). (ابن عذارى: 1948، ج2، ص32-133).

وكيفما كان الأمر فإن هذه العلاقات الدبلوماسية التي قامت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينية، ترينا أن كلاً من العالم الإسلامي والمسيحي قد بدأ يخرج عن تقاليده القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التي أصبحت هي المتحكمة في سياسته، لا الاعتبارات الدينية كما كان الحال من قبل.

- **صلح شارل الأصلع مع الأمير محمد بن عبد الرحمن:**

ألزم شارل في هذا الصلح بالا يعود إلى مساعدة من يخرج عن الطاعة من نصارى إسبانيا، في الوقت الذي تنازل فيه الأمير له عن بارشلونة وغيرها من مدن قطلونية. لوم يعد المسلمون يتصدون لمحاربة ملوك فرنسا منذ ذلك الحين. (رجب: ص158).

- **علاقة الأمير عبد الله بن محمد مع نافارا:**

نشأت إمارة نافار أو نبرة في بلاد البشكنس الواقعة في جنوب غرب البلاد البرينية وعاصمتها بنبلونة. وقد اتسمت علاقتها قبل عهد عبدالله بالعداء، خاصة وأنها كانت ترتبط إما بالمصاهرة أو الحلف مع الزعماء المسلمين في الثغر الأعلى الذين كانوا في معظم الأوقات ثائرين على السلطة الأموية، كما سعت للتعاون مع جارتها اشتوريس ضد الدولة الأموية، لذلك جردت عليها هذه الدولة العديد من الحملات العسكرية.

كان عبد الله مرتبطاً برباط المصاهرة مع الحاكم النافاري فرتون، فقد تزوج ابنته ونقة التي تنعتها المصادر الإسلامية باسم "درة" (ابن عذارى: 1948، ج2، ص51) وبفضل هذه المصاهرة فإن العلاقة بين فرتون وعبد الله كانت جيدة بدليل أن المصادر لا تورد أي أخبار بشأن إرسال حملات عسكرية ضد فرتون. لكن ذلك لا يدل من جهة أخرى على أن الجبهة الإسلاميةالمواجهة لهذه الإمارة كانت مستقرة.

- **سفارات عبد الرحمن الناصر:**

جمع في عبد الرحمن الناصر في شخصيته عدة مواهب ومزايا جعلته حاكماً من الطراز الأول، فهو سياسي مرن، وقائد شجاع، وإداري محنك، ومثقف رفيع، لذلك ترك بصماته واضحة ليس على مستوى دولته فحسب، بل تعدى ذلك إلى العالم من حوله. فعلى المستوى الداخلي استطاع أن يجعل من قرطبة جوهرة العصر، تزدحم بالسكان، وتشمخ في سمائها العمائر والقصور، ويأتي جامعتها طلاب العلم من كل حدب وصوب. وعلى مستوى جيرانه أصبح الناصر الحاكم الأكثر منعة في غربي البحر المتوسط، ساعده على ذلك أفول شمس الإمبراطورية الكارولنجية، وتحويل

منافسه المعز لدين الله الفاطمي مركزه شرقاً، وعلى مستوى العالم الإسلامي ساعده تحجيم دور الخلفاء العباسيين بواسطة العنصر التركي على إعلان الخلافة الأموية، منافساً بذلك الخليفة العباسي على الزعامة الدينية للعالم الإسلامي، وهو أمر لم يتجرأ عليه أحد من أسلافه بالأندلس. كل ذلك أهل الناصر بأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة له، فسعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه.

- **تبادل عبد الرحمن الناصر وقسطنطين السابع السفارات:**

استعادت الدولة البيزنطية عافيتها على يد الأسرة المقدونية، ورجعت لها مكانتها التقليدية كزعيمة للعالم المسيحي، خاصة في عهد قسطنطين السابع (945-959م) المعاصر للخليفة عبد الرحمن الناصر. وقد فرضت تطورات الأحداث والظروف المتشابهة بين قرطبة والدولة البيزنطية أن تكون هناك علاقة خاصة وانسجام بين الجانبين، ترجم ذلك من خلال تبادل السفراء بين الجانين، ففي عام 334هـ/948م على حسب رواية ابن خلدون (ابن خلدون: (1957) ج4، ص142) أو في عام 338هـ/949م على حسب رواية المقري (المقري: ج1، ص279) وفدت على عبد الرحمن الناصر رسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع، ولعل الإمبراطور ابتغى من وراء هذا التقارب في نظر البعض الحصول على مساعدة الخليفة الأموي في إعداد حملة ضد جزيرة كريت، أو ضمان حياده على الأقل (ابن عذارى: (1948) ج1، ص213-214).

بينما يقول ابن الخطيب: "ووصل إليه رسول ملك القسطنطينية العظمى، راغباً منه ايقاع المؤالفة" (ابن الخطيب: ص37) ولعل هذه العبارة تبين الغرض من الزيارة، وهو السعي إلى طلب صداقة الخليفة ومودته، لكن هناك من يرى وجود دافع آخر مختلف لهذه السفارة، ذلك أن قسطنطين السابع كان شغوفاً بالعلم والتاريخ والفنون، وقد قضى بين كتبه وبحوثه ربع قرن قبل أن يعتلي العرش، وهذهالبحوث كانت لها مساهمتها في الدفع بالحركة العلميةقي القسطنطينية، ومن هنا فإن اتصالاته بالخلافة الأموية في الأندلس قد تمت ضمن هذا الإطار الثقافي (بيضون: (1986) ص 294). وما يؤكد ذلك أن هدية الإمبراطور للخليفة كانت عبارة عن كتابين نفيسين، أحدهما في علم النبات والأخر في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين، فأكثر ماكان يعني الإمبراطور في موضوع العلاقات مع الأندلس أن تقوم روابط ثقافية بين القسطنطينية وقرطبة المتألقتين علمياً في ذلك الزمان.

وقد عهد الناصر إلى أحد قواده وهو يحيى بن محمد بن الليث باستقبالهم ومرافقتهم من الميناء إلى العاصمة، فلما اقترب موكب السفارة من قرطبة خرج القواد للقائهم واستقبالهم في العدد والعدة، كما هو في عالمنا اليوم عند استقبال شخصية مرموقة، واصطف القواد وتلقونهم قائداً بعد قائد، ثم استقبلهم أخيراً الفتيان الكبيران ياسر وتمام، أعظم قواد الخليفة، وأصحاب خلوته، وذلك مبالغة في الاحتفال بهم، ورافقاهم إلى منية الحكم بعدوة قرطبة في الربض، وهي إحدى القصور الملكية حيث اختيرت لمقامهم. وأحيط هذا القصر بحراسة مشددة، ومنع الناس من الاقتراب منهم. ورتب الناصر لحجابة الرسل وخدمتهم ستة عشر رجلاً اختيروا من الموالي والحشم.

ولما حان موعد المقابلة، رحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة، فكان يوماً مشهوداً، إذ جلس الخليفة لهم في بهو المجلس الزاهر، الذي يعتبر أروع قاعات قصر الخلافة بقرطبة، وكان مخصصاً للاستقبالات الرسمية، وجلس إلى يمينه ابنه الحكم وولي العهد، ثم عبد الله، فعبد العزيز، فالأصبغ، فمروان. وجلس إلى يسار الخليفة من الأبناء المنذر ثم عبد الجبار فسليمان. وتوزع الوزراء حسب مراتبهم إلى اليمين وإلى اليسار، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء، وفرشت أبهاء القصر بعتاق الفرش وكرائم الأبسط، وظللت أبواب القصر وحناياه وعقوده بظلل الديباج ورفيع الستور. وبهذا ازدان القصر بأبهى زينة، وساد القاعة السكون الذي يبعث على الرهبة (المقرى: ج1، ص343-347).

ودخل سفراء الإمبراطور، فدهشوا لهول ما رأوا من روعة الملك، وفخامة السلطان، ووقور الجميع، وصعقوا بين يدي الخليفة، فأشار إليهم ألا (ابن عذارى: (1948) ج2، ص213). ودفع السفراء إلى الناصر رسالة في رق سماوي اللون، مكتوبة بالذهب.وجاءت صيغة توجيه الرسالة للناصر: "العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب، الحاكم على العرب بالأندلس"، ثم قدموا بعد ذلك هداياهم، وكان في مقدمتها سفران جميلان من كتب الأقدمين، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس عن الحشائش، والثاني نسخة من تاريخ أورسيوس.

وكتب الإمبراطور إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية، ولم يكن في قرطبة يومئذ من يحسن تلك اللغة، فطلب الناصر منه لاحقاً أن يرسل إليه بمن يتكلم اليونانية واللاتينية، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا، فحظى عند الناصر، وشرح محتوياته لأطباء قرطبة. أما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها. (ابن أبى أصيبعة: ج2، ص447).

وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام في ذلك الحفل، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه، وإعزاز كلمته، وذلة أعدائه. واستعد الخطباء، ولكن بهرهم هول المجلس، فوجموا وارتج عليهم القول، وكان منهم اللغوي الكبير أبو علي القالي وافد العراق وضيف الخليفة، وقد ندبه الناصر لذالك تكريماً له وتقديراً لبلاغته، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه حتى بهت وتلعثم في صمت، فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطي دون استعداد ولا سابق توقع، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره، ثم أعقبه بقصيدة، فأثار بذلامته وثبت جنانه إعجاب الحاضرين، وأكبر الناصر همته وعلمه. وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده فأغدق عليه الناصر عطفه، وولاه القضاء، وأصبح من رجال الدولة المشهورين (المقري: ج1، ص174-175).

- **تبادل الرسائل والسفارات بين عبد الرحمن الناصر وأوتو:**

من العلاقات المثيرة التي شهدتها قرطبة أثناء خلافة عبد الرحمن الناصرذلك الاتصال الذي تم بينها وبين الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كان على رأسها أوتو الأول، وكانت تلك الإمبراطورية التي أسسها شارلمانقد فقدت كثيراً من أهميتها بمرور الزمن، ولم تعد متكافئة في حجمها السياسي مع الدولة الأموية بالأندلس.واللافت للنظر أن تلك الاتصالات لم تأخذ سوى جانب

يسير من اهتمام المصادر العربية. وكانأوتو قدحمل عبد الرحمن الناصر مسئولية الغارات البحرية التي كان يشنها المجاهدون الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية، وعلى الرغممن أن نشاط هذه الجماعات البحرية كان من باب أعمال القرصنة الحرة التي كانت شائعة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، فإن أوتو اعتبر عبد الرحمن مسؤولاً من أعمال التخريب التي تقوم بها تلك الجماعات، فأرسل إليه رسالة احتجاج في عام (33هـ/950م) رد عليها الناصر برسالة مماثلة.

وفي عام (342هـ/953م) أرسل أوتو رسالة أخرى إلى الناصر حملها إليه الأسقف جان دي جوزر، وعلى الرغم من شدة لهجة الرسالة التي تضمنت تجريحاً بحق الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ورفض الناصر استلامها، وعصبية الأسقف، فقد أحاطه الخليفة بالتكريم، وأنزله في قصر قريب من إحدى الكنائس.

وحتى يتيقن من أن مضون الرسالة يمثل وجهة النظر الرسمية للدولة الكارولنجية، أرسل الناصر رسولاً إلى فرانكفورت، هو المستعرب رثموندو، الذي اشتهر باسمه العربي ربيع بن زيد، حيث اجتمع بأوتو، وبدد بحنكته سوء التفاهم الذي غمر العلاقات بين البلدين، ولما عاد إلى قرطبة أرسل معه أوتو مبعوثاً من قبله، استقبله الناصر، ورحب به، وبناء على تعليمات الإمبراطور تخلى الأسقف عن إصراره على تقديم الرسالة التي يحملها (ابن خلدون: (1957) ج4، ص143) (ابن عذارى: (948) ج2، ص218).

- **علاقات الناصر مع الممالك الإسبانية في الشمال:**

كانت نواة الحركة الإسبانية المعارضة للمسلمين في الأندلس هي فلول القوط التي التجأت عقب فتح الأندلس إلى إقليم جيليقية أوغاليسيا في أقصى الشمال الغربي، وقد بدأت هذه القوى النصرانية كالأساطير في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب الأندلس. وقد ظلت جبهة جيليقية هي الجبهة الوحيدة التي ظلت بدون فتح. وجليقية هو إقليم يمتاز بالوعورة وصعوبة المسالك وقساوة الطبيعة، مما جعل اختراقه بواسطة الفاتحين على جانب كبير من الصعوبة، خاصة وأنه ليس فيهما يستميل الفاتحين. وقد كانت عواقب هذا الإهمال وخيمة. إذ أنه في هذه البؤرة نبتت حركة المقاومة الإسبانية. وكانزائد المجموعة التي اعتصمت في هذه المنطقة رجل يدعى بلاي Pelayo اتخذ مقره في كوفادونجا Covadonga أوصخرة بلاي كما سماها العرب.ومن هذا الكهف خرجت فكرة القضاء على الحكم العربي في إسبانيا وتحريرها من نفوذهم، حاملة لواءها مملكة ليون أقدم دويلات الإسبان بزعامة الفونسو الأول حفيد بلاي الذي استولى على مدينة ليون وعلى جميع المنطقة الشمالية الغربية التي صارت تعرف بمملكة ليون. وقد أقامت هذه المملكة على ضفاف نهر دويره Duero المتاخم للمسلمين سلسلة من القلاع والحصون لحماية الحدود. وقد اتحدت هذه القلاع في القرن الرابع الهجري في إمارة واحدة عرفت باسم Castellas وهو الاسم الذي عربه المسلمون إلى قشتالة. ولم تقتصر حركة المقاومة الإسبانية على ليون وقشتالة، بل شملت مملكة إسبانية جديدة مدفوعة بنفس الأهداف السياسية هي مملكة نافار أو نبوة كما يسميها المسلمون، التي قامت تحت أقدام البرينيه (العبادي: ص196) وقد حققت بزعامة ملكها شنجة أو (سانشو) Sengha مكاسب على جانب من الأهمية، حيث امتدت سيطرتها إلى تخوم سرقسطة، إحدى أكبر مدن إسبانيا العربية.

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

أخذت ملامح حركة التحرر الإسباني الصليبية تتكشف يوماً بعد يوم، وصادفها الحظ بأن واقع المسلمين في الأندلس لم يكن خالياً من المشاكل التي صرفت جل أوقات الحكام منذ الفتح. وكان القاسم المشترك لهذه الممالك هو الموقع الجغرافي المتشابه في الوعورة وفي المناخ، فكان ذلك أول أسلحتها التي استخدمتها في رد الهجمات إلي قلب معاقلها الجبلية البعيدة، فضلاً عن سلاح آخر لا يقل أهمية، ويتمثل في الهزات العديدة التي تعرض لها الحكم الأموي، حيث صرف طاقاته الأساسية التي كان ينبغي توجيهها إلى الخارج في صراعات طويلة، يضاف إلى ذلك أن هذه الممالك كانت من الناحية الشمالية متاخمةلأوربا، وعلى اتصال بفرنسا وبالبابوية والعالم الكاثوليكي، حيث ساعدها ذلك على تدعيم قواها المادية والروحية ضد المسلمين في الجنوب، وعلى هذا كان هناك ثلاث ممالك في الشمال الإسباني عشية مجيء الناصر للحكم، اثنان منهم اتحدتا في مملكة واحدة هما مملكة ليون بزعامة أوردونيو الثاني ومملكة نافار بزعامة شنجة الأول. وقد استطاع الحلف بين ليون ونافار أن يستغل حالة التفكك قبيل عهد الناصر فاحتل بعض الحصون.

ولما كان تواجد القوى الإسبانية النصرانية على حدود الأندلس الإسلامية من الأسباب المهددة لكيانها، كان على عبد الرحمن الناصر أن يردع هؤلاء النصارى ويكبح جماحهم للمحافظة على هيبة دولته وسلامة كيانها من جهة، ولسحق أي محاولة تنازل من أراضيها من جهة أخرى.

ولعل الظروف الداخلية للأندلس قد أملت على عبد الرحمن الناصر في البداية المحافظة على الوضع الراهن، فانشغاله بالقضاء على الفتن والثورات جعله في أحسن حالاته يحافظ على ما بيده، ويقنع بما له من أراضي من شبه الجزيرة الإيبيرية، فبدل التوسع على حساب الممالك النصرانية في الشمال اقتنع بما تحت يديه، والتفت إلى ترتيب بيته الداخلي، وفي المقابل فإن الممالك النصرانية في الشمال الإسباني كانت تعمل كل واحدة منها لحسابها الخاص حتى ولو أدى الأمر إلى محاربة بعضهم البعض. وكان هذا عامل من عوامل الضعف التي استفاد منها عبد الرحمن الناصر. ومع ذلك فقد استطاع نصارى الشمل - أحياناً - فرض أنفسهم حين تمكنوا من الوصول إلى الأراضي الأندلسية، فقد وصلوا مدينة ماردة في الجنوب الغربي من الأندلس، وأثاروا الاضطرابات، وأيدوا الثوار في بعض المدن الأندلسية، وآووا إليهم الخارجين على الخليفة، الأمر الذي شكل خطورة بالغة على الأندلس.

وتغير الحال بعد أن وحد الناصر الأندلس وأعلن الخلافة فيها، حيث حققت دولته التفوق على تلك الممالك لعدة عوامل أهمها:

أ- أصبحت دولة الأندلس تحت عبد الرحمن الناصر دولة واحدة موحدة تدار بواسطة شخصية فذة , فرضت سيطرتها على أشراف الناس ورؤسائهم, ووضعت حداً لنفوذهم. وعلى العكس من ذلك تمزقت وحدة الشمال النصراني, واضطربت أحواله السياسية.

ب- لم تشهد الأندلس حروب داخلية منذ أن قضى عبد الرحمن الناصرعلى المخالفين له خلال النصف الأول لفترة حكمه، بينما بدأت الحروب في الشمال المسيحي، وازدادت اشتعالاً بسبب الصراع السياسي على السلطة بين الملوك والأمراء الأسبان أنفسهم.

ج- تمكن الناصر من القضاء عن أمل مسيحيي الشمال في مساعدة ملوك الفرنجة لهم بسبب ما أبرمه مع ملوك الفرنجة من معاهدات، كان من أهم شروطها ألا يتدخل أي منهما في شؤون الآخر.

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

د- انقطع تحالف أمراء الثغر الأعلى الأندلسي من بني قسي وغيرهم من أمراء الثغر مع نصارى الشمال، وبذلك فقد هؤلاء النصارى العون الخارجي، مما ساعد على زيادة ضعفهم وزيادة قوة الخلافة الأموية في الأندلس، فصارت كلمتها هي العليا سواء في الأندلس أو في ممالك الشمال الإسباني المسيحي.

- **زيارة الملك سانشو إلى قرطبة على عهد الناصر:**

لما مات راميرو الثاني ملك ليون، دب النزاع بين ولديه أوردونيو وسانشو، وتروي المصادرأن شانشو كان رجلاً مفرطا لسمنة لدرجة أنه كان إذا ركب حصاناً لايتحمله، مما جعله شخصية مضحكة في نظر شعبه، وهذا ساعد على فقدان عرشه، حيث عزله نبلاء ليون وقشتالة، وولوا مكانه أخيه أوردونيو المعروف بأوردونيوالرابع. ورأى ساتشو أنه في حاجة إلي انقاص وزنه من جهة، وإلى جيش يسانده لاستعادة عرشه من جهة أخرى، وهذان الأمران متوفران عند الخليفة الناصر في قرطبة، حيث كانت صناعة الطب متقدمة عن أي بلد آخر في ذلك الوقت، كما كانت قوته لا تخطؤها العين.

وفد الملك سانشو ومعه جدته Tota إلى قرطبة سنة 344هـ/958م، فاستقبلها الناصر في قصر الزهراء استقبالاً فخماً، وأكرم وفادتهما. وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة كسب الناصر من ورائها بعض الحصون من مملكة شانجة مقابل مؤازرته لسانشوواسترجاعه لعرشه. كما استجاب الناصر كذلك لطلب سانشو بأن يمده بطبيب، فأرسل معه بالفعل طبياً حاذقاً بلغة أهل الشمال، وهو الطبيب اليهودي حسداي، وقد استطاع حسداي أن يشفي سانشو من سمنته. (العبادي: ص200) وهكذا وبفضل مساعدة الناصر تمكن شانشو من استعادة عرشه. وهذه الحادثة وأمثالها تدل بوضوح على أن الناصر استطاع أن يبسط نفوذه على الشمال المسيحي وأن يفصل في مشاكل ملوكه فيولي ويعزل منهم من يشاء.

- **زيارة أوردونيو لقرطبة على عهد الحكم المستنصر:**

لم تكن لدى المستنصر مشاكل داخلية ذات أهمية بعد سحق الثورات المختلفة على عهد أبيه الناصر، حيث كانت متاعبه في الغالب خارجية، خاصة العلاقة مع الإسبان التي اتخذت حيزاً هاماً في سياسته على الرغم من الطابع الودي الذي سادها في أواخر عهد الناصر. ولما توفي الناصر ظن سانشو أن الظروف قد تغيرت وأن ذهاب الناصر يبيح له التحلل من تنفيذ العهود التي اتخذها على نفسه، فأخذ يماطل ويسوف ظناً منه أن الخليفة الجديد رجل عالم فيلسوف لا تهمه الحرب. غير أن الحكم المستنصر صمم على أخذ حقه بالقوة، وبينما هو يستعد لذلك، وفد عليه الملك أوردونيو الرابع المخلوع الذي سبق أن أخذ منه الملك وأعطى لسانشو أيام الناصر على رأس عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، ومعهم غالب الناصري مولى الحكم وصاحب مدينة سالم، وذلك في عام 351هـ/962م فاستقبلهم الوزير هشام المصحفي في قوات كثيفة من الجند، فلما دخلوا قصر قرطبة، ووصل أوردونيو إلى مابين السدة وباب الجنان سأل عن قبر الناصر، فأشير إليه في

الروضة بداخل القصر، فسار إليه وخلع قلنسوته، وانحنى أمامه خاشعاً. وانزل أوردونيو وصحبه في دار الناعورة الفخمة، وبولغ في إكرامهم.

وبعد يومين استدعاه الحكم إلى قصر الزهراء، حيث حشدت قوات عظيمة من الجند، وبولغ في الاحتفالات بالزينات وإظهار الأسلحة والعدد. وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس الشرقي ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر، وجئب أوردونيو وصحبه، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس، فدخلوا بين الصفوف المزركشة، وقد بهروا بما رأوا، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة، وأجلسوا برهة الانتظار، ثم استدعوا للمثول بين يدي الخليفة، فسار أوردونيو ومن ورائه أصحابه، فلما وصل إلى المجلس الخلافي كشف رأسه، وخلع برنسه، ولما دنا من سرير الخليفة سجد أمامه، ثم قبل يده، ثم ارتد راجعاً إلى كرسي من الديباج المثقل بالذهب. وتولى الترجمة وليد بن خيرون قاضي الذمة بقرطبة، واستقبل الحكم أورودنيو بحرارة، وأحاطه بمظاهر الحفاوة الملكية (ابن عذارى: (948) ج1، ص225) وأعرب عن سروره وترحيبه بمقدمه، ووعده برعايته.

وبسط أوردونيو قضيته، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو، مع أن الشعب كان قد آثره ونصره عليه باختياره، لكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به، فأغاثه ونصره عليه، ومع ذلك فقد قصر في الوفاء بعهده. ووعد أوردونيو الحكم أن يضع نفسه وبلاده وشعبه تحت رعاية الخليفة، وتعهد بمحالفة الإسلام ومقاطعة صهره أمير قشتالة، وأن يقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه (ابن خلدون: (1957) ج4، ص145). وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته في تمليكه ما كان له. وخرج أوردونيوبعد أن بهره ما رأى من آيات الفخامة والسلطان، وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه.

وقد ألقي الخطباء والشعراء خطبهم وقصائدهم منوهين بروعة هذا اليوم العظيم، ومن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادي (المقري: ج2، ص251) (المقري: ج2، ص251):

ملك الخليفة آية الإقبال *** وسعوده موصولة بنوال

والمسلمون بعزة وبرفعة *** والمشركون بذلة وسفال

ألقت بأيديها الأعاجم نحوه *** متوقعين لصولة الرئبال

هذا أميرهم آتاه آخذاً *** منه أواصر ذمة وحبال

متواضعاً لجلاله متخشعاً *** متبرعاً لما يرع بقتال

وكان نزول أوردونيو في ضيافة المستنصر كافياً لأن يفقد سانشو صوابه، ويقدر أي خطأ فادح أقدم عليه بخرقه نصوص المعاهدة التي التزم بها من قبل ومما زاد في قلقه اضطراب الجبهة الإسبانية الموحدة واتخاذ فرديناند أمير قشتالة جانب صهره المخلوع أوردونيو، موجهاً بذلك ضربة قوية للتحالف التقليدي الذي ربط بين قشتالة وليون (المقري:ج1، ص384). فلما علم سانشو بهذه الزيارة عاد إليه صوابه، وأسرع فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار، مبدياً استعداده لتنفيذ الشروط التى أخذت عليه، وهنا وجد المستنصر نفسه في موقف لا يخلو من الحيرة أيهما يختار من الملكين؟ ثم حدث أن توفي أوردونيو الرابع، فحل الإشكال، ولكنه كان حلاً ظاهرياً، لأن سانشو عندما بلغه موت أوردونيو عاد إلى الغدر من جديد واحتفظ بالحصون المذكورة، ثم أخذ يستعد

لمحاربة المسلمين وتحالف مع مملكتي نفارا وقشتالة وكونت برشلونة، لكن المستنصر تمكن بفضل تفوق جيشه من غزو هذه الممالك والانتصار عليها، كما تمكن من استلام الحصون المذكورة (ابن خلدون: (1957) ج4، ص145).

- **توالي السفارات على قرطبة بعد وفاة سانشو:**

وحالف الحظ المستنصر بوفاة سانشو ملك ليون عام 966م مسموماً، فخلفه ابنه ردميره (راميروا) الثالث، وكان لا يتجاوز من العمر ثلاث سنوات، فتولت عمته الراهبة البيرة (الفيرا) الوصاية عليه، وكان تولية هذا الملك الصغير العرش سبباً في انتشار الفوضى، وخروج كثير من الأمراء عليه. وانقسمت مملكة ليون إلى إمارات صغيرة، وأخذ كل أمير يتوجه إلى قرطبة لاستعانة بخليفتها ضد خصومه، أو لتجديد الصداقة والمودة، فتوالت السفارات المسيحية على بلاط الحكم منذ عام 966م، ومن ذلك إرسال كل من مملكتي جليقية واشتوريش سفارة للحكم تطلبان المساعدة لصد خطر النورمان الواقع عليهما. كما وفدت على قرطبة سفارة شانجة غرسيه الثاني ملك نافارا لطلب الصلح. وفي سنة 360هـ/971م وفدت إلى العاصمة الأموية سفارة بوريل أمير برشلونة لتجديد التقارب والمودة، وفي نفس السنة وفدت الراهبة الفيرا لعقد معاهدة سلام، وكذلك أرسل كونت سلمنقة وملك قشتالة سفارات مماثلة لتحقيق السلام (دوزي: ج2، ص65).

على أن ملك قشتالة الذي كان قد أرسل سفارة إلى قرطبة لتجديد معاهدة السلام، قد قام في الوقت نفسه الوقت باقتحام حصن ديثا، الواقع شمال شرق مدينة سالم، فأحرق الزرع، وساق الماشية، وقد وصلت أنباء هذا الاعتداء في الوقت الذي غادرت فيه السفارة القشتالية، فأرسل الحكم من قبض على أعضائها وأودعهم السجن (بروفنسال: ص437).

- **علاقات محمد ابن أبي عامر" المنصور" الدبلوماسية:**

- علاقته مع الدولة البيزنطية:

كانت علاقة المنصور مع الدولة البيزنطية علاقة ودية، تبودلت فيها الهدايا والرسل، وهي السياسة التقليدية التي سار عليها أمراء وخلفاء قرطبة من قبل. وكان الإمبراطور في ذلك الوقت هو بازيل الثاني (976- 1025م) الذي يعتبر عصره من أزهر عصور الأسرة المقدونية الحاكمة.

- علاقته مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة:

وكانت علاقته سلمية مع الإمبراطور أوتو الثالث (983-1002م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وألمانيا وايطاليا. وكان هذا الإمبراطور رجلاً محباً للسلام، مشجعاً للعلوم، يجيد عدة لغات كالألمانية واللاتينية واليونانية، وقد حاول أن يستعيد عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة كما كانت في عهد شارلمان، لكنه فشل، ومات كمداً في سنة 1002م في نفس السنة التي مات فيها المنصور.

- علاقته مع ملوك إسبانيا:

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

توطدت العلاقة بين المنصور وبعض ملوك إسبانيا مثل سانشو أباركا ملك ناقارا (970-995م) فتزوج المنصور أخته التي اعتنقت الإسلام، فأنجب منها ابنه عبد الرحمن الذي أطلق عليه اسم سانشويلو Sanchouelo أي سانشو الصغير، ذكرى لأبيها، خاصة وأنه كان أشبه الناس به، وقد حرفت العامة هذا اللقب إلى شنجول.

أما علاقته بمملكة قشتالة فقد لقي حاكمها جارثيا فرناندیز Gracia Fernandez الكثير من المتاعب والهزائم على يد المنصور، وقد أسر في إحدى المعارك على يده، فحمل إلى قرطبة، حيث مات ودفن هناك في كنيسة للمستعربين تعرف بكنيسة القديسين الثلاثة، ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى قشتالة. وقد مني ابنه وخليفته سانشو هو الآخر بهزائم عديدة، فاضطر آخر الأمر أن يعقد اتفاقاً مع المنصور ويزوجه أخته (العبادي: ص247).

ولما كانت جيليقية في أقصى شمال إسبانيا الشمالية الغربية ملاذاً لملوك ليون يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية، ولما كانت مستقراً لمدينة شنت ياقب الدينية كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس، أراد المنصور أن يضرب إسبانيا النصرانية في صميم معقلها القاصي وفي رمزها الروحي، فقام في غزوته الثامنة والأربعين بعبور نهر دويرة بالبرتغال، مستخدماً أسطوله، ونزل مدينة شنت ياقب، فاستولى عليها عام 387هـ/997م، وهدم أسوارها وصروحها التاريخية وكنيستها العظمى، لكنه حافظ على مقام القديس يعقوب احتراماً للتقاليد الإسلامية. وعاد المنصور محملاً بالتحف والذخائر وأبواب المدينة ونواقيس الكنيسة، حملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة، فوضعت الأبواب فيما بعد في سقف الزيادة التي أنشأها المنصور بالمسجد الجامع. واهتزت إسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها لهذه الغزوة، ولبث أثرها العميق سنيناً عديدة. وعلى إثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون أن يسعى لطلب الصلح، فبعث بولده إلى قرطبة طالباً الصلح، فأجابه المنصور إلى ما طلب. (عنان: ج2، ص559-561).

- **علاقة عبد الملك المظفر الدبلوماسية مع ممالك الشمال الإسبانية:**

واصل عبد الملك الظفر سياسة أبيه في الغزو والإغارة على إمارات إسبانيا المسيحية، فقد اتفقت حجابته في الوقت الذي انتفضت فيه جميع هذه الدول على المسلمين، وزادت أطماعها بموت المنصور، ويذكر ابن بسام (ابن بسام: القسم الرابع، ص 64) أن الافرنجة في آخر وقت المنصور قد تمسكت بالمسالمة، فلما سمعت بموته طمعت. والواقع أن وفاة المنصور أتاحت فرصة إحياء التحالف القديم الذي أقامه شانجة حاكم قشتالة لغزو الأراضي الإسلامية، إلا أنه كان لشهرة عبد الملك أثر كبير في تخاذل أعدائه عن مهاجمته.

وكان حاكم برشلونة أول المبادرين إلى خرق السلام، إلا أن المظفر كان قاسياً في رده على تحركه، حيث قاد حملة تمكنت من دخول برشلونة. وقد احتفل بعيد الفطر فيها. ولم يمض وقت طويل علي ذلك حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الهدنة والمصالحة، فاستقبل سفراؤه استقبالاً حافلاً على نمط أسلافهم من السفراء النصارى، وكانت هذه آخر فرصة أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها (عنان: ج1، ص611).

العلاقات الدبلوماسية للدولة الأموية بالأندلس مع ملوك أوربا وأسبانيا

ويبدو أن حادثة برشلونة أدت إلى تفسخ في الجبهة الإسبانية وإعادتها مجدداً إلى أجواء التشاحن والمقارعة عندما نشب خلاف بين حاكمي قشتالة وجيليقية، وقد استغل المظفر في المقابل هذه الأجواء، مستدرجاً المتخاصمين إلى الاحتكام لديه لتسوية مشاكلهم الداخلية التي نجمت عن الخلاف حول من له حق الوصاية على ملك ليون الطفل (الفونسو الخامس) أم خاله شانجة ملك قشتالة أم قونزاليز Gonzalez ملك جيليفية (ابن عذارى: (1948) ج3، ص10). وبالفعل احتكمت ملوكا النصارى إلى المظفر في ما شجر بينهم من خلاف، فأرسل إليهم بعض نصارى قرطبة، ومنهم إصبغ بن عبد الله بن نبيل الذي حكم لصالح كومثالث (ابن عذارى (1948) ج3، ص394). ولم يكن قرار المظفر الذي حكم للأول إلا عاملاً لتصعيد الفوضى في أكبر الممالك الإسبانية (ليون) والتي بقيت مشلولة النشاط بصورة عامة حتى أواخر عهده (ابن خلدون: (1957) ج4، ص181).

وقام عبد الملك بصائفة ضد شانجة عام 394هـ/1004م، ويبدو أن شانجة غضب من هذا التحكيم فنقض العهد بينه وبين عبد الملك، فخرج إليهعبد الملك، وأوغل في أرضه، فلم يظهر شانجة أمامه، فقفل عبد الملك عائداً إلى قرطبة، واضطر شانجة إلى التماس السلم، ووفد بنفسه إلى قرطبة، فأعظم عبد الملك موردة، ورضي أن يشترك مع عبد الملك في الغزو ضد وطنه مملكة ليون، فخرج عبد الملك غازياً ومعه شانجة الذي كان يهديه عورات قومه (ابن عذارى: (1948) ج2، ص 301).

- **سفارة قيصر القسطنطينية إلى عبد الملك:**

في طريق عودته من الغزو عام 396هـ/1006م، وافى عبد الملك سفير من قبل قيصر القسطنطينية الإمبراطور بسيل الثاني، ومعه كتاب مكتوب بالذهب، يطلب فيه استئناف المودة والصداقة التي كانت بين ملوك بني أمية وبين القياصرة، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين في أطراف الجزائر التابعة لقيصر، فسر عبد الملك، وصرف السفير أجمل صرف (الهاشمي: (2007) ص562).

- **علاقة عبدالرحمن بن المنصور الدبلوماسية مع ممالك الشمال الإسبانية:**

وصل إلى قرطبة في عهد عبد الرحمن بن المنصور رسل سانشو غرسيه أمير قشتالة يطالبون بتسليم الحصون الواقعة على الحدود، والتي كان قد أخذها الخليفة الحكم المستنصر والمنصور ابن أبي عامر وعبد الملك المظفر من القشتاليين، فحضر قاضي الجماعة بقرطبة والفقهاء والشهود العدول، وكتبوا كتاباً بتسليم تلك الحصون إلى القشتاليين. ويتضح هنا مدي التدني والانحدار والضعف من الخليفة إمام أمير قشتالة الذي أملى عليه شروطه وأوامره.

- الخاتمة:

استقبل أمراء وخلفاء قرطبة تلك السفارات بترحيب وحفاوة، وحقق رغبة مرسليها، مما جعل قرطبة محط هؤلاء الملوك والأمراء، إذ أن قرطبة أصبحت تغدو شيئاً فشيئاً مركز التوجه في شبه الجزيرة الإسبانية كلها، وتغدو كعبة لملوك إسبانيا النصرانية، يغدون إليها تباعاً، يقدمون إليها عهود الطاعة، ويلتمسون منها الصداقة والعون. لكن كان هذا التقارب الذي سعى إليه هؤلاء الملوك النصارى في الشمال يحقق رغبة آنية لهم لا تلبث أن تتلاشى بتغير الظروف التي فرضتها، إذ أن الخلافات بين الطرفين الإسلامي والنصراني في الشمال كان عميقاً بشكل لا يمكن ردمه، خاصة وأن هؤلاء الملوك والأمراء قد اشتهروا بتقلباتهم السريعة وبأنهم انتهازيين يستغلون الفرص، وخير دليل على ذلك أن ملك قشتالة الذي كان قد أرسل سفارة إلى قرطبة لتجديد معاهدة السلام، قد قام في الوقت نفسه الوقت باقتحام حصن ديثا، الواقع شمال شرق مدينة سالم، فأحرق الزرع، وساق الماشية، وقد وصلت أنباء هذا الاعتداء في الوقت الذي غادرت فيه السفارة القشتالية، فأرسل الحكم من قبض على أعضائها وأودعهم السجن.

- النتائج:

أولاً: أجبرت قوة معظم حكام بني أمية النصارى على احترامهم والحرص على مسالمتهم بقدر الإمكان، بل وإرسال الوفود والسفارات لعقد معاهدات سلام معهم.

ثانياً: فرضت الأوضاع الداخلية علي طرفي النزاع الأموي والمسيحي عقد معاهدات سلام وإقرار السلام، لكن لم تلبث أن تتحرك دوافع الصراع عند أحد الطرفين، فتنشب الحرب من جديد، وغالباً ما كان النصارى هم الناقضون العهد.

ثالثاً: استقبل أمويو الأندلس وفود وسفارات النصارى لأن الهدف من صراعهم معهم لم يكن القضاء على هؤلاء النصارى أو إزالة دويلاتهم، وإنما كنا يريدون التعايش معهم، وقد جاء هذا الصراع في الغالب كرد فعل على اعتداءاتهم على ثغور المسلمين.

رابعاً: حفلات الاستقبال التي أقيمت في البلاط الأموي تعكس مدي الرقي الذي بلغته قرطبة في هذا المجال، وهو استقبال يضارع لحد كبير استقبال زعماء العالم الحديث لكبار ضيوفهم.

- التوصيات:

جاء الحديث هنا عن علاقات بني أمية الدبلوماسية مجملاً لكثرة أمرائهم وخلفائهم، ونحن هنا نوصي بالوقوف بصورة متأنية عند بعض المحطات المهمة في هذه العلاقة، وذلك بإفراد بحوث أكثر تفصيلاً عن عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وعهدي الخليفة الناصر والخليفة المستنصر حتى تعم الفائدة.

المصادر والمراجع:

- أولاً: المصادر:

1- ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي (1962): الحلة السيراء، دار النشر، بيروت.
2- ابن أبى أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مكتبة الحياة، بيروت.
3- ابن بسام، أبو حسن علي (1997): الذخيرة في أخبار الجزيرة، تحقيف حسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
4- ابن الخطيب، لسان الدين (1934): أعمال الأعلام، الرباط.
5- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (1948): جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، القاهرة.
6- ابن القوطية، أبو بكر محمد الغرطبي (1994): تاريخ افتتاح الأندلس، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت.
7- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (1957): العبر في ديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
8- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين بن أبي بكر (1971): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. دار الثقافة، بيروت.
9- ابن سعيد، علي بن موسى (1953): المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر.
10- ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي (1948): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت.
11- الحميري، ابن عبد المنعم (1973) الروض المعطار في أخبار الأقطار، القاهرة.
12- القلقشندي، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 1919، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة).
13- المراكشي، عبد الواحد (1963): المعجب في تلخيص أخبار المغرب.
14- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (بدون تاريخ): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، دارالكتاب العربي، بيروت.
15- مولف مجهول: أخبار مجموعة، نشر لافونتيالكنترا.

- ثانياً المراجع الحديثة:

1- بيضون، إبراهيم (1986): الدولة العربية في إسبانيا، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
2- دوزي، رينهات (بدون تاريخ): المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
3- رجب، محمد عبد الحليم (بدون تاريخ): العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
4- الزناتي، سالم عبد الله (2008): تاريخ الأندلس وحضارتها في عهد بني أمية، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا.
5- سالم، السيد عبد العزيز (1988): تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
6- العبادي، أحمد مختار (بدون تاريخ): في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت.
7- عنان، محمد عبد الله (1970): دولة الإسلام في الأندلس، ط3. مكتبة الخانجي، القاهرة.
8- الهاشمي، عبد المنعم (2007): الخلافة الأندلسية، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.